بسم الله الرحمن الرحيم

جواب سؤال

صرّح أمس ٢٣/١٠/٢٠٠٩ الأمين العام للناتو " راسموسن " بأن حلف الناتو يرحب بخطط الدفاع الصاروخي البديلة وفق خطة أوباما، كما أكدت تشيك أنها مستعدة لتكون جزءاً من هذه المنظومة الدفاعية وذلك بعد يومين من قبول بولندا، فكيف ذلك؟! ألم يعلن أوباما في ١٧/٩/٢٠٠٩ قراره التخلي عن نصب قواعد صاروخية في بولندا ومنصات للرادار في الجمهورية التشيكية؟ أم أن إعلان أوباما التخلي لم يكن حقيقياً بل هو خدعة لتهدئة روسيا أمنياً مؤقتاً؟ وإن كان كذلك فهل أمريكا أوباما صارت تحسب حساباً لتنامي قوة روسيا، فأصبحت تهتم بتهديتها أمنياً، وعليه يكون تفوق أمريكا العسكري قد اهتر، ومن ثم ضعف تحكّمها في الموقف الدولي؟

الجواب: إن أوباما قد تخلى عن شكل نظام الدفاع الصاروخي الذي رسمه بوش، ولكنه وضع مكانه منظومة دفاعية صاروخية بشكل آخر أقوى في بعض جوانبه من نظام بوش، ولكنه وضعه في قالب أقل استفزازاً من القالب الذي وضعه فيه بوش، وحتى تتضح الصورة، وتجاب فروع السؤال المذكور، فلا بد من أخذ النقاط التالية بالحسبان:

١- منذ عام ١٩٥٠ والسياسيون الأمريكيين إلى جانب الخبراء الأمريكيين يعملون بشتى الوسائل والسبل لحماية أمريكا من خطر صواريخ الاتحاد السوفيتي بالستية (ICBMs). إلا أن هذه الجهود انحصرت في نظام الدفاع الصاروخي القومي (NMD) الذي تمخض عنه لاحقاً نظام الدرع الصاروخي ضد التهديدات المحتملة للهجوم النووي السوفيتي. وفي عام ١٩٦١ توقف العمل بالبرنامج بسبب أمور تقنية، وحلت مكانه مجموعة من مشاريع دفاعية، إلا أن تلك المشاريع لم يستمر العمل فيها طويلاً لأنه لم يتم إثبات قدرتها على اعتراض وردد الصواريخ البالستية السوفيتية، كما أنها كانت مكلفة جداً، فضلاً عن أنها كانت تعاني من مشاكل تكنولوجية رئيسية. ولكن هذه البرامج والبرامج المضادة بالنسبة للتنافس الصاروخي والحماية منه، قد نجحت في دفع كلا البلدين، أمريكا والاتحاد السوفيتي، إلى توقيع معاهدة الحد من انتشار الصواريخ البالستية (ABM) عام ١٩٧٢. وبحسب الاتفاقية فإن كلا الدولتين تستطيع بناء نظام دفاع صاروخي ضد خطر الصواريخ البالستية، إلا أن الاتفاقية قيدت كليهما بمحدود جغرافية وبأعداد الصواريخ التي يُسمح بنشرها من قبل أي منهما للدفاع عن نفسها. فعلى سبيل المثال نشر السوفيت نظام صاروخي سمي ب (A-35) نظام جالوش الصاروخي (Galosh missile system). وقد كان ذلك النظام لحماية موسكو فقط. ونشرت أمريكا نظاماً دفاعياً وقائياً حول الولايات المتحدة لوقايتها وللدفاع عنها من أي صاروخ يطلق من أي قاعدة تابعة لنظام الصواريخ البالستية السوفيتية (ICBM).

٢- تعد مبادرة الدفاع الإستراتيجية (SDA) التي أطلقها رونالد ريغان في ٢٣/٣/١٩٨٣ خرقاً للمعاهدة التي وقعتها أمريكا مع الاتحاد السوفيتي للحد من انتشار الأسلحة البالستية (ABM)، كما أدخلت الاتحاد السوفيتي في حلبة السباق مع أمريكا، ما أدى إلى ضغط اقتصادي على الاتحاد السوفيتي، أدى مع عوامل أخرى إلى انهياره. لقد كانت مبادرة الدفاع الإستراتيجية (SDA) أو ما يُعرف بحرب النجوم أكثر المشاريع طموحاً عند الأمريكيين التي قاموا بها في السابق لبناء نظام درع صاروخي. فقد كان برنامج حرب النجوم يتضمن نشر الصواريخ، والرادارات، والمضادات على الأرض

وفي الجو والبحر والفضاء، ومن ضمنها العديد من محطات فضائية لمعارك ليزر (space based laser battle stations)، ومضخات نووية و أقمار ليزر بالأشعة السينية، (Nuclear pumped x-ray laser satellites) وأنظمة قيادة متطورة جداً وأنظمة تحكم. وكان برنامج حرب النجوم (SDA) كذلك مختلفاً عن باقي البرامج السابقة، فهو ليس كنظام الدفاع الصاروخي القومي (NMD) لحماية الولايات المتحدة فحسب بل هو كان مُعداً لغرض حماية حلفاء أمريكا في أوروبا من خطر الصواريخ الباليستية السوفيتية. وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١ تراجع برنامج حرب النجوم، وطبيعياً توقف العمل به، ولكن بقي نظام الدفاع الصاروخي القومي (NMD) فاعلاً، وفي فترة حكم بيل كلينتون تم تطوير هذا النظام ثم العمل به مرحلياً. وأصبح محل اهتمام الإدارة الأمريكية في عهد بوش الابن وأصبح النقطة المركزية في توتر العلاقات الأمريكية الروسية. وفي ٢٠٠١/١٢/١٣ أعلن بوش عن انسحابه من معاهدة الحد من انتشار الصواريخ الباليستية (ABM)، ويُعدّ ذلك الحدث هو الأول في التاريخ الحديث لأمريكا الذي تنسحب فيه من معاهدة رئيسية دولية للسلاح، وقد ترتب على ذلك إنشاء وكالة الدفاع الصاروخي الأمريكية التي كان من مهامها وضع خطة طموحة لترميم نظام الدفاع الصاروخي القومي (NMD).

٣- في ٢٠٠٢/١٢/١٦ أصدر بوش "توجيه الأمن القومي الرئاسي رقم ٢٣" (National security presidential directive 23) وهو عبارة عن خطة مجملية للشروع بأنظمة للدفاع ضد الصواريخ الباليستية المعدة للإطلاق. وفي اليوم التالي طلبت أمريكا وبشكل رسمي من بريطانيا والدنمارك استخدام مرافق في كلا البلدين كجزء من عملية ترميم نظام الدفاع الصاروخي القومي (NMD). وقد أعطى بوش نظام الدفاع الصاروخي القومي (NMD) اسماً آخر هو نظام الدفاع الأرضي الأوسط (GMD). وعملياً فإنّ نظام الدفاع الصاروخي القومي (NMD) كان يحتوي على مشاريع قواعد فضائية وأخرى بحرية وجوية. وفي شباط ٢٠٠٧ بدأت أمريكا بشكل رسمي في التباحث مع بولندا وجمهورية التشيك بخصوص البدء ببناء قواعد للدروع الصاروخي لتسهيل عمل نظام الدفاع الأرضي الأوسط (GMD). وبررت أمريكا سبب شروعها بنظام الدفاع الأرضي الأوسط (GMD) في أنّ هناك دولاً شريرة مثل كوريا الشمالية، وإيران على وجه الخصوص، تعملان على تطوير صواريخ بعيدة المدى قادرة على حمل رؤوس نووية تهدد المصالح الأمريكية في أوروبا وإسرائيل! في حين أنّ الحقيقة كانت محاصرة روسيا وإبقاءها في دائرة تهديد الدروع الصاروخي الأمريكي. وقد أدركت روسيا حقيقة هذا الأمر، واعتبرت نظام الدفاع الأرضي الأوسط (GMD) تهديداً قاتلاً لأمنها. وفي تشرين الثاني ٢٠٠٨ قال السفير الروسي للنيرو "دميتري روجزان" بأنّ الصواريخ الأمريكية في بولندا تستطيع أن تضرب موسكو خلال أربع دقائق. وإحراج أمريكا وإظهار زيف زعمها أنّها من أجل إيران، فقد عرضت روسيا على أمريكا بان تنشر رادارها بجانب رادارات روسيا في قاعدتها "غابالا" في أذربيجان فهي أقرب إلى إيران من تشيكيا وبولندا، إن كان الهدف هو إيران! فلم توافق أمريكا لأن الهدف كان نصب القواعد في أوروبا الشرقية لتهديد روسيا... ولا تريد أن تشارك روسيا في قاعدتها فتكون تحت نظرها مادام الهدف هو روسيا نفسها!

وهكذا، فإن روسيا كانت تدرك أنّ الدروع الصاروخي موجه ضدها وليس ضد تلك الدول الشريرة! ولذلك فإنّ بوتين قد هدد في نيسان ٢٠٠٧ بحرب باردة جديدة إذا ما بقيت أمريكا مصرة على نشر الدروع الصاروخي في أوروبا الوسطى.

وزيادة على ذلك، وكرد على التهديدات الأمريكية، فإنّ بوتين هدد بالانسحاب من معاهدة القوى النووية (Nuclear forces treaty) التي وقعت مع أمريكا عام ١٩٨٧، ثم هدد بنشر صواريخ في مقاطعة كالينغراد (Kaliningrad) على بحر البلطيق القريبة من بولندا، وذهب أحد الجنرالات الروس إلى أبعد من ذلك حيث هدد بقصف بولندا إن هي أصرت أن تكون جزءاً من الدرع الصاروخي الأمريكي. ففي ١٥ آب ٢٠٠٨ قال الجنرال الروسي "اناتولي نوجوفتسن (Anatoly Nogovitsyn)"، قال: "إنه باستضافة بولندا للدرع الصاروخي فإنّها تجعل من نفسها هدفاً، هذا أكيد ١٠٠%، فقد أصبحت هدفاً للهجوم، وتدمير هذا الهدف يحتمل صدر الأولوية."

٤- قبل إعلان أوباما الرسمي التخلي عن خطة الدرع الصاروخي الأمريكي في بولندا وجمهورية التشيك، كان أوباما قد صرح في أوائل أيلول ٢٠٠٩ بأنه سيتخلص من خطط للدفاع الصاروخي في أوروبا الشرقية لصالح نظام دفاع صاروخي مركب على سفن حربية أمريكية. لذلك فإنّ إعلان أوباما في ١٧/٩/٢٠٠٩ التخلي عن الدرع الصاروخي الأمريكي كان متوقّعاً منه، وقد جاء ذلك بعد أن طلب تقييم برنامج "بوش" للدفاع الأرضي الأوسط (GMD).

٥- أما هل تخلي أوباما عن مشروع "بوش" نظام الدفاع الأرضي الأوسط (GMD) هو حقيقي أو خدعة لطمأنة وتهذئة روسيا أمنياً مؤقتاً، فإنه يمكن فهم ذلك من استعراض الأمور التالية:

أ- ما جاء في خطاب أوباما الجديد عن المشروع حيث قال: "لقد وافقت على العديد من التوصيات لوزير الدفاع ورئيس الأركان لتقوية الحماية الأمريكية ضد أي هجوم محتمل من الصواريخ الباليستية. هذا النهج سيولد قدرات أسرع، ويبني نظاماً أكثر كفاءة، ويوفر شكلاً دفاعياً أكبر ضد التهديدات الصاروخية من برنامج الدفاع الصاروخي الأوروبي ٢٠٠٧" وأضاف أوباما "لقد أحرزنا تقدماً ملحوظاً في تطوير صواريخنا الدفاعية وخصوصاً في بطاريات الصواريخ الأرضية والبحرية وفي المعدات الداعمة لها. إنّ نهجنا الجديد سيمكننا من نشر التقنية الحديثة والمتقدمة بشكل أسرع من النظام السابق... إن النظام الجديد في أوروبا سيكون أكثر قوة وأذكى وأسرع لحماية القوة الأمريكية وحلفائها، من النظام السابق، فهو سينشر قدرات أكثر كفاءة وفاعلية، ويؤكد ويبني الثقة في تعهدنا بحماية أمريكا من تهديدات الصواريخ الباليستية، ويؤمن ويعزز حماية حلفائنا في النيتو".

ب- قدّ وزير الدفاع روبرت غيتس (Robert Gates) الانتقادات العديدة التي وُجّهت ضد قرار أوباما بالقول "إنّ الذين يقولون بأننا نبذنا الدفاع الصاروخي في أوروبا، إما أنهم لم يسمّعوا الخبر بشكل صحيح أو أنّهم لم يفهموا الموقف على حقيقته" كما أكد غيتس على أنّ النظام الجديد "يزود قدرات دفاعية صاروخية أفضل من البرنامج السابق الذي بُدئ به قبل ثلاثة أعوام تقريباً" وأضاف "لدينا الآن فرصة نشر مجسات ومعتراضات صاروخية في شمال وجنوب أوروبا التي ستتمكن -على المدى القريب- من اعتراض الصواريخ القادمة من إيران وغيرها".

ج- من خطاب أوباما ووزير دفاعه يتبين أنّهما لا يتحدثان عن هجران نظام الدفاع الأرضي الأوسط (GMD)، بل على العكس من ذلك فهما يتحدثان عن برنامج أكثر تعقيداً. وقد كشف غيتس عن خطته للجيل الجديد من نظام الدفاع الصاروخي القومي (NMD) حيث قال "الخطوة التالية في عام ٢٠١٥ تقريباً ستضمن قواعد أرضية ميدانية ومرنة SM-3s". وكذلك فقد ورد على صفحة "Euronet" تصريح للجنرال جيمس كارتررايت (James

(Cartwright) وهو نائب رئيس هيئة الأركان المشتركة الأمريكية في التعليق على نشر الصواريخ المقترح "غالباً سيكون نشر الرادارات في منطقة القوقاز لأنها ستكون أقرب في التقاط الإنذارات المبكرة".

٦- وعليه فإنه يتبين أن التخلي عن نظام الدفاع الأرضي الأوسط (GMD) في بولندا والتشيك سيكون مؤقتاً لإرضاء روسيا. فقد كان غيتس ماكرا في عدم ذكر فتح مباحثات البنتاغون مع كلا البلدين بولندا والتشيك بخصوص استضافة النموذج الأرضي لنظام SM-3 وتجهيزات أخرى للنظام. وكذلك المباحثات حول ما تسرب من أن تركيا وجورجيا وأذربيجان يمكن أن يدخلوا في منظومة نشر الصواريخ الأمريكية، وقد ترتب على هذه التسريبات قلق شديد لروسيا لأن هذا يعني أن نشر القواعد الصاروخية الأرضية قد يمتد إلى الحديقة الخلفية، هذا فضلاً عما سببه خطاب أوباما الجديد ووزير دفاعه من قلق أشد، ولذلك فإنه على الرغم من ترحيب روسيا بقرار تخلي أوباما في ١٧/٩/٢٠٠٩، وتصريح الرئيس الروسي ديمتري مدفيدف في ٢٥/٩/٢٠٠٩ بأنه سيسحب قراره المتعلق بنشر صواريخ كاليينغراد، إلا أن ردود فعلها الأخرى كانت تشير إلى عدم الاطمئنان بقرار أوباما، ولهذا فقد رد الناطق الرسمي في وكالة المعلومات الروسية على خطابي أوباما ووزير دفاعه السابقين بالتعليق: "كما توقعنا فإن باراك أوباما عندما خطب في ٢٤/٩/٢٠٠٩ فإنه لم يتحدث عن التخلي أو تأجيل أي شيء، بل تبنى برنامجاً دفاعياً صاروخياً جديداً، مبنياً على أسس متطورة ومتقدمة تكنولوجياً، قادرة بشكل أفضل على مواجهة التهديدات الصاروخية الحالية، فقد قال أوباما بأن البرنامج أكثر كفاءة من البرنامج السابق الذي كان يضم بولندا والتشيك."

٧- أما هل اهتز تفوق أمريكا العسكري ومن ثم التحكم في الموقف الدولي، وأنها تحسب حساباً لتنامي قوة روسيا العسكرية، فإنه من الواضح أن أمريكا لم تعد تتمتع بالهيمنة على العالم كما كانت تتمتع بها قبل غزوها العراق، إذ إن العراق وأفغانستان استنزفتا قواها واستنزفتا مصادرها. إضافة إلى الأزمة الاقتصادية العالمية التي فاقمت من ضعف موقف أمريكا في العالم. ولكن بالرغم من جميع ذلك فإن أمريكا ما زالت الأكثر تفوقاً في المجال العسكري، والأكثر هيمنة في الموقف الدولي، فهي ما زالت قادرة على فرض جدول أعمال العالم، وقادرة على التحكم بالموقف الدولي. إلا أن أمريكا تواجه العديد من التحديات والمنافسات من القوى الرئيسية الأخرى. ونتيجة لبروز أزمتها سألقة الذكر فقد تعاطمت التحديات من خصومها بشكل كبير.

أما بالنسبة إلى روسيا، فقد تمكنت من استغلال أزمات أمريكا، والاستفادة من ارتفاع أسعار النفط لتحول جزء من الثروة الاقتصادية إلى مصادر عسكرية وقوة سياسية، وقد لوحظ دور روسي إلى حد ما في أمريكا الوسطى والقوقاز وأوروبا وآسيا الوسطى، حتى إنه قد صار يتداول تعبير "الدب الروسي الناهض" لوصف الوضع الروسي الحالي... ولكن على أية حال فإن روسيا بعيدة جداً عن استرجاع أيامها الذهبية الماضية، فهي لا زالت تعاني من أزمات الضعف الهيكلي في الجوانب السياسية والاقتصادية، ما يمنعها من المناطق القوية في الموقف الدولي في المدى القريب.

٥ ذو القعدة ١٤٣٠ هـ

٢٤/١٠/٢٠٠٩ م